الفصل الأول

آدم عليه السلام والتكوين

• خلق آدم عليه السلام :

إن الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن خلق الإنسان الأول - آدم عليه السلام - تشير إلى أن الله تعالى خلقه من تراب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ (٣) .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسهل والحَزَن ، والخبيث والطيب » (٤) .

كما جاء فى القرآن الكريم أن عناصر التكوين لآدم عليه السلام هى عناصرالتكوين لذُرِّيته .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ٥٩ (٢) الروم : ٢٠ (٣) الحج : ٥

(٤) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة ، وقال : حديث حسن صحيح . سنن الترمذى ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، دار الفكر العربى ببيروت - ط ١٤٠٣هـ - جـ ٤ ص ٢٧٣

(٥) الأنعام : ٢

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ منْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفيها نُعيدُكُمْ وَمنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢) وقدَ أثبت التحليل المخبرى المعاصر ، أنّ عناصر التكوين للإنسان هى عناصر تكوين التراب (٣) ... وذلك بعد قرون من الزمان على نزول القرآن الكريم ، مما يدل على إعجازه العلمى ، والمعرفى بصفة عامة .

كما يشير القرآن إلى أن التكوين قد مرّ فى مرحلة الطين ، الذى يتكوّن من التراب ، مضافاً إليه الماء .

قال تعالى : ﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلاَئكَة إنِّى خَالقٌ بَشَراً منْ طِينٍ * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه منْ رُّوحى فَقَعُواْ لَهُ سَاجدينَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإذْ قُلْنَا للْمَلاَئكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لمَنْ خَلَقْتَ طيناً ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ منْ سُلاَلَةٍ منْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكينٍ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذى أحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ منْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ منْ سُلاَلَةٍ منْ مَاءٍ مَهينٍ ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ مَا منَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ ، قَالَ أنَاْ خَيْرٌ منْهُ خَلَقْتَنى منْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ منْ طِينٍ ﴾ (٨) .

ولقد جاء وصف الطين بأنه « طين لازب »

---

(١) المؤمنون : ١٢ (٢) طه : ٥٥

(٣) د. خالص جلبى : الطب محراب الإيمان . مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) جـ ١ ص ٢ ، ص ٤٧

(٤) سورة ص ٧١ - ٧٢ (٥) الإسراء : ٦١

(٦) المؤمنون : ١٢ - ١٣ (٧) السجدة : ٧ - ٨ (٨) الأعراف : ١٢

قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ ﴾ (١) .

واللازب فى اللُّغة الثابت ، الشديد التماسك بين الأجزاء (٢) .

ومنه قول النابغة (٣) :

لا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازبٍ (٤)

فـ « طين لازب » بمعنى لزج متماسك ، فهو لا سائل ولا صلب (٥) وقيل : « طين لازب » بمعنى لاصق ... يقال : لزب يلزب لزوباً إذا لصق (٦) ، وبعد ذلك يتحوّل الطين اللازب إلى حمإٍ مسنون .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٧) .

فـ « حمإٍ مسنون » أى « طين مصوَّر على هيئة إنسان من سن الوجد أى صوَّره وصقله (٨) » .

أو « مسنون » بمعنى متغير (٩) ، فهو طين منتن أسود (١٠) .

---

(١) الصافات : ١١

(٢) محمد بن على بن محمد الشوكانى : فتح القدير ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، مصر ط ٢ ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٢) م ، جـ ٤ ص ٣٨٨

(٣) النابغة الذبيانى : شاعر جاهلى ، من أصحاب المعلقات ، عُرف بدقة الوصف ، وبراعة الاعتذار ، وعاش فى بلاط اللخميين فى الحيرة ثم فى بلاط الغساسنة توفى عام ٦٠٤ م .

منير البعلبكى : موسوعة المورد ، دار العلم للملايين ببيروت ، ط ١ (١٩٨٠ م) جـ ١ ض ٨٦

(٤) النابغة الذبيانى : ديوان النابغة ، جمعه وعلّق عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . الشركة التونسية للتوزيع ، تونس - والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، ١٩٧٦ م ، ص ٥٠

(٥) محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . ملتزم الطباعة والنشر دار الفكر العربى ، ص ٤١٣

(٦) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٤ ص ٣٨٨

(٧) الحجر : ٢٨

(٨) محمد إسماعيل ابراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية (مرجع سابق) ص ٢٥٤

(٩) الراغب الأصفهانى (أبى القاسم الحسين محمد) المفردات فى غريب القرآن . المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان ، تحقيق محمد سيد كيلانى ص ٣٤٥

(١٠) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٣ ص ١٢٩

كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

فمعنى « لم يتسنه » لم يتغير (٢) .

ويُصرِّح القرآن الكريم إلى أن الحمإ المسنون يتحول إلى صلصال كالفخار .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ (٤) .

« وأصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس ، ومنه قيل : صل المسمار » (٥) .

والصلصال : « طين يابس ، يصلصل ؛ أى يُصَوِّت إذا نقرته ، ولو طُبِخَ فى النار لصار فخاراً .. » (٦) .

ويتضح أنه فى مرحلة « صلصال كالفخار » بهذه الوصف تنتفى عنه مظاهر الحياة .

فهل يكون المراد بهذه المرحلة - صلصال كالفخار - وما سبقها من مراحل ،

---

(١) البقرة : ٢٥٩

(٢) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ٣٤٥
مجمع اللُّغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم . دار الشروق بالقاهرة ، ص ٣١٤

(٣) الحجر : ٢٦ (٤) الرحمن : ١٤ - ١٥

(٥) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ٢٨٤

(٦) محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية (مرجع سابق) ص ٢٩٤

هو المراد بقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ (١) .

كما جاء فى الحديث الشريف عن أنس أن رسول اللّه ﷺ قال : « لما صوَّر اللّه آدم فى الجنة ، تركه ما شاء اللّه أن يتركه ، فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك » (٢) .

« الأجوف صاحب الجوف ، وقيل : هو الذى داخله خال ، ومعنى « لا يتمالك » لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات ، وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب ، والمراد جنس بنى آدم » (٣) .

وعن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول اللّه ؛ متى وجبت لك النبوَّة ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » (٤) .

« فإن اللّه بعد خلق جسد آدم ، وقبل نفخ الروح فيه ، كتب وأظهر ما سيكون من ذريته ، فكتب نبوَّة محمد وأظهرها ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يبعث اللّه ملكاً فيُؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح » (٥) .

فقد أخبر ﷺ أنه بعد أن يُخلق بدن الجنين فى بطن أمه وقبل نفخ الروح فيه،

---

(١) الإنسان : ١

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة - صحيح مسلم - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار التراث العربى ببيروت ط ٢ (١٩٧٢ م) - حديث ١١١ ، جـ ٤ ص ٢٠١٦

(٣) النووى : صحيح مسلم بشرح النووى ، دار الفكر ببيروت ، لبنان ، ط ٢ ، جـ ١٦ ص١٦٤

(٤) رواه الترمذى فى كتاب المناقب ، باب : ما جاء فى فضل النبى ﷺ ، وقال : حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه . جـ ٥ ص ٢٤٣

(٥) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، المكتبة الإسلامية ، استانبول - جـ ٤ ص ٧٨

يُكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقى أم سعيد ؟ فهكذا كتب خبر سيد ولد آدم ، وآدم منجدل فى طينته ، قبل أن يُنفخ الروح فيه [١] .

وبعد تسوية صورته عليه السلام فى الملإ الأعلى . نفخ اللّه فيه من روحه . فكانت الحياة التى أهّله اللّه بها لسجود الملائكة تكريماً واحتراماً لا سجود عبادة . فالعبادة للّه وحده .

كما أن فى ذلك القبول والإذعان لأمره تعالى إظهاراً وإجلالاً للقدرة الإلهية.

قال تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَةِ إنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلاَئكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَةِ إنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ روحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٣] .

وليست حياته عليه السلام حياة حيوانية بحتة ، بل فيها سر لطيف من سر النفخة الإلهية ، التى منحها اللّه إليه عليه السلام وحققت ما يرجع إليه الفضل فى تقييم الإنسان ، من الصفات والقيم والمُثل ، والمعارف ، والقدرات ، والاستعدادات ، والتى تتكافأ مع ما أُسند إليه كخليفة فى هذه الأرض .

عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لما خلق اللّه آدم ، ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد للّه ، فحمد اللّه بإذنه ، فقال له ربه : رحمك اللّه يا آدم ، اذهب إلى أُولئك الملائكة - إلى ملأٍ منهم جلوس - فقال : السلام

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مكتبة المعارف، الرباط ، جـ ١٨ ص ٢٦٩

(٢) الحجر : ٢٨ - ٣٠ (٣) سورة ص ٧١ - ٧٢

عليكم ، فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه ، فقال : إن هذه تحيتك ، وتحية بنيك بينهم » [1] .

كما يشير المؤمنون فى مقام الشفاعة يوم القيامة إلى خصوصية آدم عليه السلام فى الخلق .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون لذلك - وقال ابن عبيد : فيلهمون لذلك - فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يُريحنا من مكاننا هذا ، قال : فيأتون آدم ﷺ فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ... » [2] .

* * *

• خلق حواء :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [3] .

إنه من المتفق عليه أن المراد بـ « نفس واحدة » فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو آدم عليه السلام [4] .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن سورة المعوذتين ، جـ ٥ ص ١٢٣ ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه .

انظر : موارد الظمآن . المطبعة السلفية ، ط ١ ، فى كتاب علامات النبوة ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

الإمام الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه) : المستدرك على الصحيحين . حيدر آباد الدكن - الهند ، ١٣٣٤ هـ ، جـ ١ ص ٦٤ ، جـ ٢ ص ٣٢٥ ، جـ ٤ ص ٢٦٣

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٢ ، جـ ١ ص ١٨٠

(٣) النساء : ١

(٤) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٤١٧ =

والمتأمل فى هذه الآية قد يظهر له سؤال ، وهو : كيف خلق اللّه الخلق من نفس واحدة ؟

فكان التعقيب - كجواب - بقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ .

فاللّه تعالى خلق حواء من آدم عليه السلام ، وخلق ذريتهما من نسلهما .

ولعل مثل ذلك ما هو موجود فى مخلوقات اللّه تعالى ، مما يُلقى الضوء أو التقريب لفهم المراد .

فالحيوان الإسفنجى [1] يتكاثر ويتناسل عن طريق الانقسام ، وذلك بإبداع الذكر أو الأنثى ، ثم التزاوج بينهما ، فيكون له طريقتان فى التكاثر ، وهما الانقسام والتناسل عن طريق التزاوج بين بعضها ، واستمرار الانقسام فى البعض الآخر [2] ... وهكذا .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ ، وإن أعوج شىء فى الضِلَعِ أعلاه ، فإن ذهبت تُقيمه كسرته ، وإن تركتَه لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » [3] .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت ، واستوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلِقَتْ

= أبو السعود (محمد بن محمد العمادى) : تفسير أبى السعود . دار إحياء التراث العربى ببيروت ، لبنان . جـ ٢ ص ١٣٨

الزمخشرى (أبى القاسم جار اللّه محمود بن عمر) : الكشاف . دار الفكر ، طـ ١ ، ١٣٩٧ هـ ، جـ ١ ص ٤٩٢

(١) حيوان بحرى شبيه بالإسفنج .

(٢) د. أحمد زكى : مع اللّه فى الأرض . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م . ص ١٥٥ ، ١٦٣

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب : خلق آدم عليه السلام وذريته - صحيح البخارى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، إستانبول ، ١٩٨١ م - جـ ٤ ص ١٠١

من ضِلَعٍ ، وإن أعوج شيء فى الضِلَعِ أعلاه ، إن ذهبت تُقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيراً » [١] .

وبهذا يتضح أن حواء خُلِقَتْ من ضلع آدم عليه السلام ، وأنها فى عواطفها ومشاعرها تُحاكى ذلك الضلع الذى خُلِقَتْ منه [٢] .

فاللّه خلق حواء - أُم البشر - لملء فراغ وجدانى فى نفس آدم عليه السلام ، فهى مكملة لوجوده المعنوى والحسى ، بعد وحشته ووحدته فى الملإ الأعلى ، ولتحيا مع زوجها عليه السلام حياة المعارف والقيم والتشريف [٣] .

فخَلَقَ اللّه تعالى حواء له عليه السلام زوجة ملائمة ، وعناصرها من عناصره، لها ما يجب أن تكون عليه من خصائص الأُنوثة ، خلافاً لما ذهب إليه بعض النصارى ، من أنها خُلِقَتْ من عنصر خبيث وشيطانى ، وغلب على آرائهم أنها جسم نجس ، وليس لها روح [٤] ، وأن تفكيرها ليس عملية عقلية ، وإنما عملية غريزية [٥] ، وأنها مدخل للشيطان ، ولا يُستثنى من ذلك إلا العذراء أُم المسيح عليه السلام [٦] .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق اللّه آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : اذهب فَسلِّم على أُولئك النفر من الملائكة ، جلوس،

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الرضاع ، حديث ٦٠ ، جـ ٢ ص ١٠٩١

(٢) محمود شلبى : حياة آدم . دار الجيل ، بيروت . ط ٢ ، ص ٦١

(٣) البهى الخولى : آدم عليه السلام . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) ص ١٦٩

(٤) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن . دار الكتاب العربى - بيروت ، ط ٢ (١٩٦٧م) ص ٧٦ - ٨٠

(٥) باسمة كيال : تطور المرأة عبر التاريخ . مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ١٤٠١ هـ ، ص ٦٣ - ٦٥

محمود الجوهرى : الأخت المسلمة . دار الأنصار . القاهرة ، ص ٥٥ - ٥٦

(٦) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن (مرجع سابق) ص ٧٦

فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن » [١] .

فالصورة التى يدخل فيها الرجل إلى الجنة هى صورة آدم عليه السلام ، فلا بد أن تكون الصورة التى تدخل فيها المرأة إلى الجنة هى صورة حواء ، لا صورة آدم ، والمرأة التى تدخل الجنة أجمل من حور العين ، فلا بد أيضاً أن تكون حواء أجمل من الحور العين [٢] .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لَرَوْحَةٌ فى سبيل الله ، أو غَدوة ، خير من الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد - يعنى سوطه - خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفُها [٣] على رأسها خير من الدنيا وما فيها » [٤] .

* * *

• فى الملإ الأعلى :

إن الله تعالى قد أخبر ملائكته فى الملإ الأعلى بقراره خلق آدم عليه السلام ، خليفة فى الأرض ، وأنه سيكون له ذرية فيها ، ليكون الاحتفاء بمقدمه عليه السلام ، لا من باب طلب المشورة والرأى .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [٥].

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الاستئذان ، باب : بدء السلام جـ ٧ ص ١٢٥

(٢) محمود شلبى : حياة آدم (مرجع سابق) ص ٦٤ - ٦٥

(٣) نصيفها : يعنى خمارها .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب : الحور العين ، جـ ٣ ص ٢٠٣

(٥) البقرة : ٣٠

والملائكة بفطرتهم التى خلقها الله تعالى هم عباده المقربون الذين يفعلون ما يؤمرون ، فهم لا يتصورون إلا الخير والنقاء والتسبيح والتقديس لله تعالى ، وأن هذا هو الغاية المطلقة للوجود ، وأن هذه الغاية تتحقق بوجودهم ، فكانت الحيرة والدهشة منهم بأن الخليفة ليس منهم ، لعدم معرفتهم بحكمة خلق هذا المخلوق الجديد (١) .

ولعل مما زاد دهشة الملائكة وحيرتهم ، معرفتهم بمخلوقات الله تعالى على الأرض ، من الجان ، والحيوانات ، وما حدث بينهم من إفساد وسفك للدماء ، أو أن الله تعالى أطلعهم أن هذا الخليفة سيكون له ذرية ، وأنه سيقع بينهم إفساد ، وسفك للدماء (٢) .

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (٣) .

فكأن الملائكة يُزكُّون أنفسهم لشرف الخلافة ، إذا كانت الغاية من وجود الخليفة ، هو التسبيح والتقديس لله تعالى .

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فعلمه تعالى محيط بمخلوقاته ، وحكمته بالغة ، وعلم الملائكة قاصر على ما أخبرهم الله تعالى به ، فكان التسليم واليقين من الملائكة .

كما يُشير المؤمنون فى مقام الشفاعة يوم القيامة إلى خصوصية آدم عليه السلام فى الخلق .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط٥ ، ١٣٩٧ هـ ، (١٩٧٧ م) جـ ١ ص٥٦-٥٧

القرطبى (أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى) : الجامع لأحكام القرآن . دار الشعب ، القاهرة ، جـ ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥

أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) . جـ ١ ص ٧٩ - ٨٠

(٢) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٣

القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٣٥

(٣) البقرة : ٣٠ (٤) البقرة : ٣٠

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك - وقال : ابن عبيد فيلهمون لذلك - فيقولون : لو شفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال : فيأتون آدم ﷺ فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يُريحنا من مكاننا هذا ... » [1] .

فكان أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام إجلالاً واحتراماً له، عند خلقه ، لما منحه الله تعالى من سر النفخة الإلهية .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [3] .

وحينما خلق الله آدم عليه السلام يرى الملائكة ساجدين له ، احتراماً وإجلالاً لمقدمه ، كما يرى فى المقابل إبليس - لعنه الله - رافضاً الاستجابة ، لأمر الله تعالى بالسجود ، بل ويحاج ربه ، بكل عناد وغرور بفضله على آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ... ﴾ [4] .

قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ،

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٢ ، جـ ١ ص ١٨٠

(٢) الحجر : ٢٨ - ٣٠ (٣) سورة ص : ٧١ - ٧٢ (٤) الأعراف : ١١ - ١٢

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١) .

فكان تفضيله عليه السلام على إبليس - لعنه الله - النار التى أحرقت جوفه ، بالحقد ، والحسد ، وهو يتمتع بالحرية ، والإرادة ، والمسؤولية لتبعيات عمله ، ولذلك كان عصيانه ، وكان الجزاء .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) .

فكان الغرور ، والعناد ، والعصيان من إبليس - لعنه الله - فى الملإ الأعلى ، والإصرار على رفع لواء العصيان ، وأنه سيستغل كل ما أُوتى من استعداد وقدرة من أجل أن يضم إليه آدم عليه السلام ، وذريته ، عن طريق الإغواء وتزيين المعصية ، انتقاماً منه بسبب تفضيله عليه ، وما حكم الله تعالى عليه لعصيان أمره تعالى بسببه (٣) .

فكان من الله تعالى أن حذَّر آدم عليه السلام من إبليس وعرَّفه أنه عدوه .

قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ (٤) .

---

(١) سورة ص : ٧٣ - ٧٦ (٢) الأعراف : ١٣ - ١٨

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢٦٠٩ - ٢٦١٢

البيضاوى (ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل . دار الجيل . ص ٢٠١

محمد أحمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط. ١ (١٩٧٩ م) ص ٣ (٤) طه : ١١٧ - ١١٩

يتلقى آدم عليه السلام وزوجه أول أمر من الله تعالى ، وهما يتمتعان بالحرية والإرادة والمسؤولية لتبعيات عملهما .

قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

عاش آدم عليه السلام وزوجه فى الجنة ، حلّ لهما جميع أشجارها إلا شجرة واحدة ، عُرِّفا بها ونُهيا عنها ، فكانت حياتهما حياة ملؤها السعادة ، والطمأنينة ، والأمان ، والنعيم ، وكان جلساؤهما من الملائكة ، فكانا يريانهم ، ويكلمانهم ، ويخاطبانهم (٣) .

ويحصل آدم عليه السلام على فيض ، ونعمة جديدة من ربه .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٤) .

أى مسميات المخلوقات سماوية ، أو أرضية ، مما يلزمه فى حياته ، وخصائصها ، وكيفية الاستفادة منها ، واستغلالها (٥) ، بما وُهِبَ من قدرة على التمييز ، وبهذا يحصل آدم عليه السلام على قدرات واستعدادات جديدة ، فكان من الله تعالى أن أظهر لآدم عليه السلام وملائكته سر تكريمه عليه السلام ، وحكمة خلقه ، وأنه خلق جديد يكمن فيه الخير والشر ، وأن لديه الحرية ، والإرادة ، والمسئولية ، وأن لديه القدرة على التعامل مع الأشياء ، والاستفادة منها ، بفضل ما أعلمه الله به ، (٦) وما أودعه فيه .

---

(١) البقرة : ٣٥ (٢) الأعراف : ١٩

(٣) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٦٤

(٤) البقرة : ٣١

(٥) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٤

(٦) سيد قطب : فى ظلال القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٥٧

سميح عاطف الزين : آدم والتكوين - دار الكتاب اللبنانى ببيروت . ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م)ص٥٦

محمد إسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل . دار الفكر العربى بالقاهرة ط ٢ ، ص٢٦

أحمد بهجت : أنبياء الله . دار الشروق بالقاهرة وبيروت ، ط ٧ ص ٣٩

فكانت المناظرة بين آدم عليه السلام والملائكة ، التى عرفوا فيها أين يكمن سر التكوين ، وكان الفوز فيها لآدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

وإنه إذا كان كل من الملائكة وإبليس يعرفون أن آدم عليه السلام وذريته استخلفهم الله تعالى فى الأرض كما سبق ، وأن مقامه فى الجنة إلى أجل معلوم عند الله تعالى .

فهل آدم عليه السلام عرف ذلك من شمولية قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ؟ (٢)

ومن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٣) .

وحديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ، مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نَسمة هو خالقها من ذريته ، إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً ونوراً ، ثم عرضهم على آدم فقال : أى رَبِّ ؛ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أى رَبِّ ؛ مَنْ هذا ؟ فقال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، فقال : رَبِّ وكم جعلتَ عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أى رَبِّ ؛ زده من عمرى أربعين سنة ... » (٤) .

---

(١) البقرة : ٣١ - ٣٣ (٢) البقرة : ٣١ (٣) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣

(٤) رواه الترمذى فى كتاب التفسير ، سورة الأعراف ، جـ ٤ ص ٣٣١ - ٣٣٢

من خلال ذلك يتضح أن آدم عليه السلام قد أطلعه ربه على أن مصيره فى الأرض التى استخلفه فيها ، هو وذريته ، وأن بقاءه فى الجنة مؤقت إلى أجل معلوم ، وأن وجوده فى الأرض فيه حياة وموت ، وطاعة ومعصية ، ومعرفته بأنه يملك الحرية ، والإرادة والمسؤولية .

وإن هذه الآيات وهذا الحديث من الآيات والأحاديث التى أشكلت على كثير من العلماء ، مما اضطرهم إلى كثير من التأويل فى النصوص ، ولعله بتوضيح ظواهر طبيعية لمخلوقاته تعالى فى الأرض ما يقرِّب ذلك للأذهان .

فالحيوان الإسفنجى - كما سبق - يتكاثر عن طريق الانقسام ، بإبداع الذكر أو الأنثى ، ثم التزاوج بينهما ، ومن هنا يكون له طريقتان فى التكاثر ، هما الانقسام أحياناً ، والتزاوج أحياناً أخرى [1] .

والإنسان لا يعدو فى أساس تكوينه خلية واحدة ، تتخلق من اتحاد حيوان منوى للذكر مع بويضة للأنثى .

كما أن ذلك غير متحقق قبل خلق حواء ، وأن ظهور كل نَسمة إنما هو من ظهر آدم عليه السلام .

فمن المحتمل أن خلايا أبناء آدم عليه السلام خرجوا من صلبه ، ثم ظهرت ذريتهم عن طريق التزاوج لقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ والله أعلم .

وإن من عجائب خلقه سبحانه أن جرثومة [2] الكوليرا تستطيع أن تخلف ذرية تغطى الكرة الأرضية فى خلال ثلاثين ساعة ، إذا لم يكن هنالك عائق لتكاثرهـــا [3] .

---

(١) د . أحمد زكى : مع الله فى الأرض (مرجع سابق) ص ١٥٥ - ١٦٣

(٢) الجرثومة كائن حى وحيد الخلية لا يُرى بالعين المجردة .

(٣) د . عبد المحسن صالح : الميكروبات والحياة ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٣٥ - ٣٦

فكان أمر الله تعالى لآدم عليه السلام وزوجه بالسكن فى الجنة - كما سبق- وهما يعرفان أن ذلك مؤقت إلى أجل معلوم عند الله تعالى .

وكان حب الخلود والتملك عندهما غريزتين فطرهما الله تعالى عليهما ، فكانتا طريق إبليس - لعنه الله - للإيقاع بهما ، وذلك بالاقتراب من الشجرة التى نهاهما الله عنها .

قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُرِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٢) .

فكان أمر الله تعالى لهما بالنهى عن الاقتراب من الشجرة ويعرف آدم عليه السلام وزوجه أن المقصود بالنهى الأكل منها .

ولعل آدم عليه السلام وزوجه لما سمعا مقالة إبليس - لعنه الله - وتأكيداته لهما بأنه من الناصحين ، وتكرار ذلك ، اقتربا من الشجرة يتأملانها ، ويذكران ما أمرهما الله تعالى به ، ويذكران تحذير الله تعالى لهما بأن إبليس عدوهما ، ولكن نفسيهما الأمارة بالسوء تذكرهما بما قاله إبليس ، وتردده فى وجدانهما لحبهما للخلود والتملك .

فكانت لحظة غفلة ونسيان ، وقربهما من الشجرة ، فأكلا منها ، فكانت المعصية .

---

(١) الأعراف : ٢٠ - ٢٢ (٢) طه : ١٢٠ - ١٢١

قال تعالى : ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

وهكذا تمت المعصية لأمر الله تعالى ، وتم الإيقاع بهما من قِبَلِ الشيطان ووسوسته لهما فى نفسيهما .

وذلك لأنهما واجها حياتهما البشرية دون أن يكون لهما رصيد من التجارب، حيث إنهما لم يزاولا خصائصهما البشرية بعد ، وربما لم يحسا بوجود غرائز لديهما فطرهما الله تعالى عليها كحب الاستطلاع ، فلم يجدا ضرورة لمجاهدة النفس وردع الغرائز ، وتقدير خطر إبليس ، للمحافظة على هذه المنزلة العالية (٣) .

قال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٤) .

« فغوى » تفيد معنى آخر غير « فعصى آدم ربه » ، ولعل المقصود بذلك فسد عيشه (٥) فى الجنة ، واضطربت نفسه ، ومزاجه ، وتعكر صفوه ، والجنة لا تصلح لمن هذه صفاته ، وإنما الأرض التى سيستخلفه فيها ، هى مقره ، التى هى من طبيعته ، وعناصره من عناصرها ، وأعطى الإمكانيات والاستعدادات

---

(١) طه : ١٢١ (٢) الأعراف : ٢١ - ٢٢

(٣) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٦٣

أحمد بهجت : أنبياء الله (مرجع سابق) ص ٤١

سيد قطب : فى ظلال القرآن (مرجع سابق) جـ ١٦ ص ٢٣٥٣ - ٢٣٥٥

(٤) طه : ١٢١

(٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ٥ ص ٤٢٩٧

للتعامل معها ، وللقيام بأدوار الحياة فى الأُطر المرسومة له فى هذه الأرض ، بعد أن يكون قد أخذ رصيداً من التجارب التى تؤهله للخلافة ، وهنا ينتهى الأجل المعلوم عند اللّه تعالى لبقائه عليه السلام وزوجه فى الجنة .

عن أبى أيوب الأنصارى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها اللّه لكم ، لجاء اللّه بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم » (١) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تُذنبوا لذهب اللّه بكم ، ولجاء بقوم يُذنبون ، فيستغفرون اللّه فيغفر لهم » (٢) .

فإن اللّه تعالى أراد أن يُعطى آدم عليه السلام بابتلائه إياه - امتحاناً لعزيمتـه - مراحل من التجارب واللّه يعلم أنه سيعصيه ، ولكن أراد اللّه تعالى أن يكون نزوله من الجنة بسببه ، من حيث إنه مخلوق مُكلّف ، ذو حرية وإرادة ومسئولية ، وليرى هذا الإنسان المكان والمآل الذى يؤول إليه بالمعصية ، ومكان الطائعين ، وقيمة التوبة بالنسبة للتائبين .

فكانت الفتنة ، وكان التردى من آدم عليه السلام وزوجه ، ولكنهما ندما وتابا إلى اللّه تعالى ، بما تلقياه منه سبحانه .

قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

ولعل المراد بهذه الكلمات ما ورد فى قوله تعالى : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٤) .

فكانت المعصية والندم ، وكان التعليم من اللّه تعالى بطريق الخلاص من المعصية ، وكانت الاستجابة والقبول من آدم عليه السلام وزوجه بطلب التوبة . وهنا عرفا أين يكمن الخير ، وأين يكمن الشر .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب التوبة ، حديث ١٠ ، جـ ٤ ص ٢١٠٦

(٢) رواه مسلم فى كتاب التوبة ، حديث ١٠ ، جـ ٤ ص ٢١٠٦

(٣) البقرة : ٣٧ (٤) الأعراف : ٢٣

« لأن مشيئة اللّه - سبحانه - اقتضت أن يترك الكائن البشرى ، يشق طريقه بما ركّب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ، وما أمد به من التذكير ، والتحذير على أيدى الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين ، كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ، وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ، وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سُنَّة اللّه ، وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضَلَّ ، فعلى سُنَّة اللّه الجارية وفق مشيئته الطليقة يتحقق الهُدى والضلال » [1] .

* * *

• الهبوط إلى الأرض :

هبط آدم عليه السلام وزوجه من الجنة فى الملإ الأعلى إلى الأرض بعد المعصية ، وقبول توبتهما بأمره تعالى .

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمَى ﴾ [3] .

وقد تَبدَّلت حال آدم وزوجه بعد الهبوط عن حالهما وهما فى الملإ الأعلى ، فلم يعد آدم عليه السلام الذى يخالط الملائكة ، ويكلمهم ويكلمونه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، بل ويعلمهم ، وذلك لما يتمع به من خصائص روحية عالية كما سبق. وإنما صار إلى الحال التى ورثناها عنه عليه السلام [4] .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن (مرجع سابق) جـ ٨ ص ١٢٦٧

(٢) البقرة : ٣٨ - ٣٩ (٣) طه : ١٢٣ - ١٢٤

(٤) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٦٤ - ١٨٨

فالقرآن الكريم لم يذكر بعد هبوط آدم عليه السلام أنه يرى الملائكة ، أو يسمعهم ، أو يكلمهم ، ويكلمونه ، أو يرى إبليس الذى أوقعه فى المعصية .

وهكذا هبط آدم عليه السلام إلى الأرض ، ولكنه هبط خليفة للّه فيها ، حاملاً النبوة لأبنائه ، فنزلت عليه صحف [١] ، لا كتب مقدسة ، ولم يكن من بين أولى العزم من الرسل .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [٢].

وعن أبى ذر قال : قلت : يا رسول اللّه ؛ أى الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول اللّه ؛ نبى كان ؟ قال : « نعم نبى مُكَلَّم » [٣] .

« وقال بعض العلماء ، فى إنزال آدم عليه السلام إلى الأرض ، عقاباً له : إن هذا الإنزال لم يكن إنزال إهانة ، بل إنزال كرامة ، فإن كان آدم يعبد اللّه فى الجنة بالتعريف والتشريف ، فإنه أنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت العبوديتان ، استحق أن يكون خليفة فى الأرض » [٤] .

ونزل معهما إبليس - لعنه اللّه - إلى الأرض حاملاً لواء المعصية والشر ، ليضم إليه من استطاع من بنى آدم عن طريق التزيين والإغواء لتكتمل عناصر الابتلاء والامتحان .

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥] .

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ص ٣٠

(٢) طه ١١٥

(٣) رواه أحمد - المسند وبهامشه منتخب كنز العمال ، المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - جـ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ٢٦٥

(٤) محمد إسماعيل إبراهيم : قصص الأنبياء والرسل (مرجع سابق) ص ٢٩

(٥) الأعراف : ٢٦ - ٢٧

وكان التكليف الإلهى إبتلاءً وامتحاناً للإنسان ، لما يتمتع به من الحرية والإرادة ، وهو يعنى ترشيد حياة الإنسان عن طريق الرقابة الذاتية (الداخلية) ، والرقابة الخارجية (السلطة) ، وهما لا غنى للإنسان عنهما فى بناء الحياة علـى مستوى الفرد والمجتمع ، لتحقيق السعادة فى الدارين على أساس العمل الصالح .

قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (١) .

وهبط آدم عليه السلام إلى الأرض وتصف الأخبار أن طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع ، ولا شك أن زوجه - حواء - تقارب هذا الطول والعرض (٢).

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق اللّه آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلّم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك ، تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة اللّه . فزادوه : ورحمة اللّه ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » (٣) .

وعلماء الطبيعة يرون أنه قد حدث قُبيل وجود الإنسان انقراض لبعض الحيوانات الكبيرة برية أو بحرية أو برمائية عن وجه الأرض ، ويجعلون ذلك بسبب وجود عصر جليدى أو غيره حين ذاك (٤) ، ونحن نعلم أن اللّه تعالى قد استعمل عدة طرق فى علمية الإهلاك ، ولا ننكر وجود مثل ذلك .

---

(١) الملك : ٢

(٢) محمود شلبى : حياة آدم (مرجع سابق) ص ٦٣

(٣) رواه البخارى فى كتاب الاستئذان ، باب : بدء السلام ، جـ ٧ ص ١٢٥

(٤) سلامة موسى : نظرية التطور وأصل الإنسان . سلامة موسى للنشر والتوزيع - القاهرة ط ٣ (١٩٥٧ م) . ص ١٥٤

ولكن ننكر أن يكون له أثر فى عملية وجود الإنسان عن طريق التطور ، بسبب ذلك ، ولنساءل عن مهمتها قبل وجود الإنسان ، وبهذا الحجم ، ثم انقراضها عند ظهور الإنسان ، وهل هنالك مخلوقات مُكلَّفة على الأرض قبل الإنسان ؟

وإن الجن قد سبقوا الإنسان فى الوجود على الأرض ، وهم مُكلَّفون بالعبادة لله تعالى .

فهل ذلك يعود إلى طبيعة وخصائص الجن ؟

عن أبى هريرة رضى الله عنه « أنه كان يحمل مع النبى ﷺ إداوة [1] لوضوئه وحاجته ، فبينما هو يتبعه بها فقال : من هذا ؟ فقال : أنا أبو هريرة ، فقال : « ابغنى أحجاراً أستنفض بها ، ولا تأتنى بعظم ولا بروثة » ، فأتيته بأحجار أحملها بطرف ثوبى حتى وضعتها إلى جنبه ثم انصرفت حتى إذا فرغ مشيتُ معه فقلت : ما بال العظم والروثة ، قال : « هما من طعام الجن ... »[2].

ومهما يكن من أمر فإن إرادة الله تعالى نافذة فى ملكه .

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّـهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [4] .

وإن كان الله تعالى لم يرد مثل ذلك للإنسان رحمة منه بمشيئته تعالى ، فليس هنالك مانع من أن يكون أراد مثل ذلك لغيره من المخلوقات .

والله سبحانه وتعالى سَخَّر الأرض للإنسان . وقد يكون ذلك من التسخير الذى أراده تعالى تهيئة لآدم عليه السلام ولذريته على الأرض .

---

(١) أداوة : اداة أى إناء وضوئه .

(٢) رواه البخارى فى كتاب مناقب الأنصار ، باب : ذكر الجن ، جـ ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١

(٣) الواقعة : ٦٠ - ٦١ (٤) فاطر : ١٦ - ١٧

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

وإن من المحتمل أن تكون هنالك تغييرات أُخرى فى الكون غير الأرض مع ظهور الإنسان على سطح الأرض .

قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) الحج : ٦٥ (٢) الجاثية : ١٢ (٣) الجاثية : ١٣